قراءة تحليلية لكتاب رحلة الحشائشي إلى ليبيا 1895م، "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب "

حسين سالم مرجين [1] **سالمة إبراهيم بن عمران**

هيئة أبحاث العلوم الطبيعية والتكنولوجيا

تاريخ التقديم: 18-05-2020 ، تاريخ القبول: 15-08- 2020، نشر إلكترونيا في 31-12-2020
https://doi.org/10.36602/faj.2020.n16.08

ملخص البحث:

تسعى هذه القراءة التحليلية لكتاب رحلة الحشائشي إلى ليبيا 1895م، "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب " إلى رصد وكشف الواقع السوسيولوجي لليبيا خلال الفترة المذكورة، من خلال ما تناوله الرحّالة محمّد بن عثمان الحشائشي عن ليبيا خلال العام 1895م، من ملاحظات وانطباعات ومشاهدات ومعلومات سوسيولوجية مهمة عن المجتمع الليبي، حيث يهدف الباحثان من خلال هذه القراءات التأكيد بأن معرفة تاريخ المجتمعات ضرورية لفهم واقعها، إضافة إلى كون مثل هذه المخطوطات التاريخية ربما تسهم في تعميق روح الانتماء الوطني، وتعزيز الهوية الليبية، وإعادة بناء العقل الليبي الذي يحتاج إلى زادٍ روحيّ.

وكشفت هذه القراءة عن وجود صلات من الانسجام والتناغم بين القبائل والمناطق الليبية سواء أكانت غربًا، أم شرقًا، أم شمالًا، أم جنوبًا، بالرغم من حالات الانقسام السياسي والجغرافي الموجودة آنذاك، كما تُسهم مثل هذه القراءات في التحريض والتحفيز الوعي الوطني نحو تشكيل الهوية الوطنية –الليبية– لتكون الرابطة ما بين المناطق والقبائل الليبية كافة، ليصعد ما من أعماقها ما كان مدفونًا من تجليات وطنية.

الكلمات المفتاحية: *ليبيا –الرحالة الحشائشي – طرابلس الغرب.*

[1] mrginhussein@yahoo.com

ISSN 2664-1682

An analytical reading of the book Al-Hashashi's trip to Libya in 1895, "Evacuation of Distress from Tripoli, the West"

Hussein Mrgin **Salma Benomran**
Authority of Natural Sciences and Technology Research

Abestract

This analytical reading of the book Al-Hashashi's trip to Libya in 1895 AD, "Evacuation of Distress from Tripoli in the West", seeks to monitor and reveal the sociological reality of Libya during the aforementioned period, through what Muhammad bin Othman Al-Hashashi dealt with in Libya during the year 1895 AD, from observations, impressions, observations and important sociological information on Libyan society, where the researchers aim through these readings to confirm that knowledge of the history of societies is necessary to understand their reality, in addition to the fact that such historical manuscripts may contribute to deepening the spirit of national belonging, strengthening the Libyan identity, and rebuilding the Libyan mind.

This reading revealed links of harmony and harmony between the Libyan tribes and regions, whether they are west, east, north, or south, despite the political and geographical divisions that existed at the time, and such readings contribute to inciting and stimulating national awareness towards the formation of the national identity - Libyan - to be the link between all the Libyan regions and tribes, to climb from the depths of what was buried from the national manifestations.

Key words: *Libya - Al-Hashashi traveler - Tripoli West*

1. المقدمة

يُشكل كتاب رحلة الحشائشي إلى ليبيا للرحالة التونسي محمّد بن عثمان الحشائشي وثيقة تاريخية مهمة، حيث دون الرحالة وقائع وقيد مشاهدات وملاحظات رحلته إلى ليبيا سنة 1895م؛ حيث عاشت ليبيا آنذاك حالات من الانقسام السياسي

ISSN 2664-1682

والجغرافي من خلال وجود حاكم لإقليم طرابلس، إضافة إلى حاكم لإقليم بنغازي، يتم تعينهما مباشرة من قبل السلطة العثمانية في إسطنبول، وذلك بعد أعوام من الوحدة الوطنية خلال فترة الحكم القرمانلي (1711–1835م).

وكتاب رحلة الحشائشي إلى ليبيا قام بتقديمه والتحقّق منه الأستاذ علي المصراتي، وصدر عن دار لبنان للطباعة والنشر العام 1965م، ويقع الكتاب في (272) صفحة.

ولد هذا الرحّالة العام 1855م وتوفّي سنة 1912م، وله عدد من الكتب منها: كتاب رحلة الشتاء، وكتاب وصف معرض باريس 1900م.

1.1 مشكلة البحث وأهميتها.

تأتي هذه المراجعة في إطار رصد وكشف الواقع السوسيولوجي لليبيا خلال الفترة المذكورة، من خلال ما تناوله الرحّالة محمّد بن عثمان الحشائشي عن ليبيا خلال العام 1895م، من ملاحظات وانطباعات ومشاهدات ومعلومات سوسيولوجية مهمة لفهم طبيعة المجتمع الليبي. فابن خلدون يقول: فهم الحاضر لا يتم إلا في ضوء فهم الماضي، فالتاريخ هو علم إنساني اجتماعي، وفي الوقت نفس فهو سجل حافل لتاريخ المجتمعات البشرية، في حين أن علم الاجتماع يهتم بالماضي لكي يفسر به الحاضر، وكلاهما (الماضي والحاضر) يعملان من أجل وضع صورة تنبؤية للمستقبل، بالتالي فإن اكتشاف الدلائل والمضامين التاريخية سيؤدي بدون شك إلى فهم طبيعة المجتمع بشكل أفضل، فالمأساة الحقيقة تكمن في ألا نستفيد من دروس التاريخ بحيث نتجنب تكرار الأخطاء مرة أخرى.

ISSN 2664-1682

1.2 أسئلة البحث

نروم من وراء هذه القراءة تحليلية ذلك محاولة الإجابة على السؤالين التاليين:

1- هل يُعد معرفة التاريخ في مجتمع ما ضرورة للفهم السليم لأي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية الحاصلة في ذلك المجتمع؟

2- هل تكشف القراءات التحليلية السوسيولوجية للراحلات التاريخية ما كان مدفونًا من تجليات وطنية؟

وستتم عملية قراءة هذا الكتاب من خلال التركيز على أهم الوقائع والملاحظات المجتمعية التي تمّ سردها من قبل الرحّالة في كتابه خلال فترة رحلته إلى ليبيا، بموضوعية ودون التقليل من أهمية وقيمة ما تمّ سرده.

3.1 أهداف البحث

نهدف من وراء هذه القراءاة تحقيق هدفين هما:

1- التأكيد بأن معرفة تاريخ المجتمعات ضرورية لفهم واقعها، حيث يسهم التعرف على الماضي في معرفة التغيرات التي تطرأ على البنى والنظم الاجتماعية، وتطوّرها، فعملية التشخيص والفهم والتحليل السليم لأي ظاهرة من الظواهر المجتمعية مرتبطة إلى حدٍ كبير بمحاولة معرفة ما كان، وهذا يعني الحاجة إلى وجود مثل هذه المخطوطات كسجلات اجتماعية، وذلك لتتّبع بعض الظواهر، ومعرفة ما اعتراها من تغيرات من لحظة الميلاد، بل ومن قبلها مما هو موروث وكامن في الجينات.

ISSN 2664-1682

2- تعميق روح الانتماء الوطني، وتعزيز الهوية الليبية، وإعادة بناء العقل الليبي الذي يحتاج إلى زادٍ روحيّ، ربما تستطيع مثل هذه المخطوطات التاريخية أن توفّره.

2. الإجراءات المنهجية

تم الاستعانة بالمنهج التاريخي، ومنهج تحليل المضمون في عملية قراءة ومراجعة هذا الكتاب، حيث أننا بحاجة إلى الاستعادة التصورية للماضي من خلال قراءة وتقييد ورصد أهم الوقائع والملاحظات المجتمعية التي تمّ سردها من قبل الرحّالة في كتابه خلال فترة رحلته إلى ليبيا، بموضوعية ودون التقليل من أهمية وقيمة ما تمّ سرده، بقصد معرفة التغيرات التي طرأت على البنى المجتمعية، وتطورها، والتوصل من ثم إلى حقائق وتعميمات تساعدنا على فهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل.

وقبل الولوج إلى رصد أهم الملاحظات والاستنتاجات، قد يكون مفيدًا أن نوضّح للقارئ المنهجية المتبعة في هذه القراءة والمراجعة، وهي:

إن الكتاب يضم حوالي (35) فصلًا، حيث تضمّن أهم المحطات التاريخية في تاريخ ليبيا منذ الفتح الإسلامي إلى الحكم العثماني، وتضمّن أيضًا مقتطفات عن ملاحظات ومشاهدات عدد من الرحّالة السابقين عن ليبيا، بالتالي سيتم التركيز على أهم الوقائع والأحداث السوسيولوجية التي سردها الرحّالة ذات العلاقة بالمجتمع الليبي، دون الولوج إلى تفاصيل تلك الوقائع والمشاهدات.

طرح الباحثان عدد من التساؤلات، والاستنتاجات المقتضبة بغية تحريض القارئ على أعمال التفكير؛ كما أن التوسع في بحثها قد يدفع الخوض في جزئيات لا ثقل كاهل هذه القراءة وحسب، أنما تضعفها.

ISSN 2664-1682

اعتمد الرحّالة في كتابة هذه المخطوطة بالإضافة إلى ما شاهده ولاحظه على عدد من الكتب والمخطوطات الأخرى مثل: تاريخ الوزير السراج الأندلسي، وتاريخ ابن خلدون، كما اعتمد على كتب عدد من الرحّالة السابقين مثل: الرحّالة التجاني التونسي، والرحّالة أحمد بن ناصر، والرحّالة العياشي، والرحّالة محمّد بيرم، وهذا يعني أن بنية المخطوطة تحمل في طياتها جزأين، الأول ما شهده ولاحظه الرحّالة الحشائشي، والثاني ما سرده الرحّالة وبناءً على معلومات ووقائع استعان بها من المراجع سالفة الذكر.

وقبل الحديث عن عنوان المخطوطة نودُّ الإشارة إلى بعض الملاحظات الهامة وهي:

هذه المخطوطة التي حققها وقدّمها الأستاذ علي المصراتي تمّ الانتهاء من كتابتها سنة 1912م، بالتالي نلاحظ وبشكل جليّ تأثير عنوان المخطوطة بما حصل لليبيا سنة 1911م، جراء الاحتلال الإيطالي، فجاء العنوان "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب "، ويوضح علي المصراتي بأن لهذه المخطوطة عنوان آخر وهو:"النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية"، ويُبين بأن إدارة الاحتلال الفرنسي في تونس قامت بترجمة وطباعة هذه المخطوطة إلى الفرنسية سنة 1903م، وأشار أيضًا إلى أن الرحّالة قام بإضافة بعض الوقائع التي تتحدث عن الاحتلال الإيطالي لليبيا، والتي تضمّنتها خاتمة المخطوطة، إلا أن هذه الإضافة غير موجودة في الترجمة الفرنسية؛ كون عملية الترجمة تمّت في وقتٍ سابق من الاحتلال الإيطالي.

وعن سبب وجود عنوانين لهذه المخطوطة يوضّح علي المصراتي بأن ذلك عادة عند قدامى المؤلفين في ذلك العصر، حيث جرت العادة أن يتخذ المؤلفين أكثر من عنوان لكتاباتهم، إلا أننا نعتقد بأن السبب الرئيس ربما يعود إلى قيام إيطاليا باحتلال ليبيا، مما

ISSN 2664-1682

جعل الرحّالة يبحث عن عنوان آخر لمخطوطته المعدّلة العام 1912م، ربما ليواكب الحدث الحاصل سنة 1911م.

الرحّالة الحشائشي قام برحلته إلى ليبيا العام 1895م، في حين أن الانتهاء من كتابة هذه المخطوطة المعدّلة كان العام 1912م، وهذا يعني أن الانتهاء من كتابتها تمّ بعد سبعة عشر سنة من رحلته إلى طرابلس، هذا ربما يبرّر استعانته بعددٍ من الكتب التاريخية في كتابة هذه المخطوطة؛ كونه ربما نسي بعض الوقائع والمشاهدات، وهذا ما تنبّه إليه علي المصراتي عندما لاحظ عدم التزام الرحّالة في ترتيب ذكر المدن والقرى التي زارها الحشائشي، فهناك قفزات واضحة في المخطوطة؛ فمرة ينتقل بنا إلى مدن وقبائل ومناطق الجنوب الليبي، ثم ينتقل إلى الشرق، ومن ثم ينتقل إلى الغرب، ثم يعود إلى الجنوب وهكذا.

جاءت هذه الرحلة قبل الاحتلال الإيطالي لليبيا بحوالي ستة عشر سنة، حيث تمّت ترجمتها كما سبق وذكرنا إلى الفرنسية من قبل إدارة الاحتلال الفرنسي في تونس سنة 1903م، وهذا يعني بأنها كانت مصدرًا للمعلومات للجانب الفرنسي آنذاك، وذلك في ظل احتدام التنافس الفرنسي – الإيطالي الحاد على من يحتلّ ليبيا، وهذا ربما يجعل مسألة حصول الرحّالة على الدعم الفرنسي تقفز إلى الذهن!، خاصة عندما نعلم بأن المصراتي كشف في مقدمته بأن الرحّالة الحشائشي كان يقوم بكتابة الدراسات والبحوث العلميّة ويقدمها للمعتمد الفرنسي بتونس آنذاك، كما يُعزّز هذا الاتجاه كون هذه الرحلة كان مقصدها ليبيا دون غيرها، إضافةً إلى كون الرحّالة ركّز في رحلته على الجنوب الليبي وعلى الحركة السنوسية، حيث أفاض في وصف أراضي فزان؛ فتحدث عن مرزق، وغات، كما تحدث عن الطوارق، وعن الكفرة، والواحات، والجغبوب، كما تحدث عن السنوسية، ونحن

ISSN 2664-1682

نعلم جيدًا بأن الوثائق التاريخية بيّنت وجود رغبة فرنسية باحتلال الجنوب الليبي، تمّ تجسيدها مع نهاية الحرب العالمية الثانية .

الرحّالة الحشائشي قام بزيارة ليبيا خلال العام 1895م، وبحدودها المعروفة حاليًا، في حين كانت الدول العربية المجاورة لليبيا كلها تحت الاحتلال، فالجزائر تحت الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وتونس تحت الاحتلال الفرنسي سنة 1881م، ومصر تحت الاحتلال البريطاني سنة 1882م، وهذا يُعزّز وحدة التراب الليبي منذ تلك الفترة، سواء في الشرق، أم الغرب، أم الجنوب، كما يُبين من جهة أخرى عمق العلاقات ما بين القبائل والمناطق الليبية بالرغم من المساحات الشاسعة التي تفصلها عن بعضها، وهذا يعني أن تلك الجغرافيا كانت دائمًا داعمة ومساندة لتلك العلاقات والروابط المشتركة، من خلال قبول الآخر، والبحث عن المشتركات التي تجمع ولا تفرق، وتقرّب ولا تُبعد.

إن استمرار هذه العلاقات والروابط المشتركة كان قادراً على أن يخلق الوعي الوطني بالهوية الليبية في حال وجود إرادة سياسية من السلطة السياسية الحاكمة، وبشكلٍ خاص خلال الفترة الممتدة من 1951– 2011م، ويُحفز أيضًا نحو خلق عقل ليبي قادر على استيعاب هموم وقضايا الوطن.

3. النتائج

عمومًا سوف نحرص في الصفحات القادمة على استخلاص أهم ما ذكره الرحّالة محمّد بن عثمان الحشائشي التونسي من وقائع وأحداث وفقًا لسياقها في الكتاب، ونتبع ذلك بتقييم حول ما طرحه من معلومات وأحداث.

في مقدمة الكتاب في الصفحة رقم (27) يتحدث الرحّالة الحشائشي عن أهمية التدبّر والعبرة من التاريخ، حيث يسرد هذه الأبيات المعبّرة التالية

ISSN 2664-1682

ليس بإنســــانٍ ولا عاقــــل من لم يعِ التـــاريخ في صــــــدره
ومن وعى أخبار من قد مضـى أضـاف أعمــــــاراً إلى عمــــــره
فحق على مريد الانتفاع أن يبلغ من بعده ما شاهد أو سمع إن استطـاع
لقد غرســـوا فأكلنــــا وإننا لنغـــرس حتى يأكل النــــاس بعدنا

ويؤكّد الحشائشي في مقدمته بأن الأحباب والأصدقاء من أهل العلم والأدب في تونس هم من طلبوا منه الكتابة عن تاريخ طرابلس الغرب، وبناءً على رحلته إليها، ومُكثه في تلك البلاد بين القبائل والمناطق فترة من الزمن.

في الحقيقة هناك عدة تساؤلات تبرز في هذا المجال، وهي:

- لماذا تمّت ترجمة مخطوطة الرحّالة الحشائشي إلى الفرنسية العام 1903م، في حين تأخّر خروج المخطوطة العربية حتى العام 1912م؟
- هل هذا يعني وجود مخطوطتين للرحّالة؛ الأولى بالفرنسية، والثانية بالعربية؟
- في حال وجود مخطوطتين: فهل يوجد توافق بينهما من حيث الموضوعات التي تطرّق إليها الرحّالة؟

نعتقد بأن المخطوطة الأولى حملت اسم " النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية "، وهي التي تمّت ترجمتها إلى الفرنسية سنة 1903م، في حين أن المخطوطة المعدّلة العربية –المتأخرة–، جاءت بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا، فحملت اسم " جلاء الكرب عن طرابلس الغرب "، وهذا ربما أقرب لتفسير وجود عنوانين للمخطوطة.

ISSN 2664-1682

في الصفحة رقم (46) يتحدث الرحّالة عن طرابلس من خلال أبيات شعرية يُفنّد بها بعض الأقاويل التي توسم طرابلس بكل مدنها وقبائلها وسكانها ببعض الأفعال السيئة في التعامل مع الأجانب أو الغرباء حيث يقول:

لأهـــــل طــــرابلس عــادة   من البرّ تُنسي الغـــريب الحميمــــا

حللت بها مُكـــــــرها، ثم إذ   أقمـــتُ بها أبدلــــوا الهـــاء ميمًا

كما تناول الرحّالة قصيدة التجاني في مدح طرابلس الغرب، والتي يقول فيها:

سقى ربوعك يا مغنى طرابلـس   حيـــاً يحييـك منــه كـــل منبجس

فكم يد لك في تأنيس مغتــرب   شطــت بـــه الـدار عن أُنس وأنس

وهنا نود توضيح نقطتين؛ الأولى: ألّا نقع فريسة الأقوال العابرة، أو ما يتم بثّه من جهات غير معلومة عن المجتمع الليبي، والتي لا ندري من تكون، ولا إلى أين شيء ترمي!.

والنقطة الثانية: وهي أن تسمية طرابلس لا تقتصر على سكان المدينة القديمة، كما يعتقد البعض حاليًا، إنما تشمل كل المدن والقرى والقبائل والمناطق الموجودة غرب ليبيا، والممتدة من رأس جدير غربًا، حتى ما بعد مدينة مصراتة شرقًا، وجنوبًا تمتد إلى الجبل الغربي حتى حدود غدامس.

في الصفحات من (44–52) يذكّرنا الرحّالة بعددٍ من الأعلام الليبيين، منهم: ابن موسي بن معمر الطرابلسي، أبو محمّد عبد الحميد ابن أبي بركات، ابوعلي الحسن ابن موسى الهواري الطرابلسي، وأحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري الطرابلسي.

ISSN 2664-1682

لا يخفى أنّ فطنة القارئ بمثل هذه الشخصيات لا تزال بحاجة للمزيد من البحث والكشف بغية التعرّف والتعريف بها، خاصة عندما نعلم بأن الظلام لا يستطيع تبديد الظلام، والضوء وحده الذي يستطيع فعل ذلك، بالتالي بمثل هذه الشخصيات العلميّة المضيئة نستطيع إعادة تشكيل عقل ليبي جامع، فهم يشكلون للوطن وأبنائه آية المجد، ومحييّ الأمل، ومحركي النفوس، وجامعي القلوب.

تحت عنوان طرابلس ومواكب الحجّاج في الصفحات (53–55) يُوضّح الرحّالة بأنه في طرابلس " لا تكاد تسمع من أهلها لغواً إلا سلامًا ولو لمن استحق ملاماً "، كما أوضح بأن أهالي طرابلس أثناء وجود مواكب الحجّاج لا يزيدون في الأسعار على ما كانت عليه، مع أن البلد حسبما يقول " في أكثر أحواله معروف بغلاء الأسعار، إلّا أن أهلها مستكفون بها غاية الاستكفاء، وراضون بها إلى النهاية "، كما يأتي الرحّالة في الصفحة رقم (66) ويصف فيها طرابلس وأحوالها فيقول "لا يميلون إلى الغرباء في أول الأمر، ولكن إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم"، ويقصد الرحالة هنا سكان طرابلس بشكل عام، بغض النظر عن طبيعتهم الاجتماعية؛ حضرًا كانوا أم بدوًا، وهكذا كان يُعامل أهالي طرابلس الغرباء، وهكذا كانت صورة الليبيين لدى الغرباء، الإحسان والجميل والمعروف، وهنا نتذكر قول الشاعر:

إنّ الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذي زرعا

في الصفحات (74–78) يتحدث الرحّالة عن تاريخ فزان منذ الفتح الإسلامي، ويختم قوله عن طباع أهل فزان بالقول " طباع أهلها التأني والرّزانة وغالبهم على طريقة الشيخ السنوسي إلا القليل "، ثم يستطرد فيقول " لا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن بها زاوية من زوايا السنوسيين "، وكانت أكبر بلدانهم مرزق.

ISSN 2664-1682

نعتقد بأن الحركة السنوسية قامت بدورٍ مهم في الجنوب الليبي، ليس من ناحية التوعية الدينية وحسب، لكنها ساهمت في تقريب الجغرافيا بين الليبيين– ربما بشكل غير مقصود– حيث أن مسألة الوطن آنذاك لم تكن مطروحة، لكن انتقال مشايخ الحركة السنوسية إلى الزوايا في الجنوب قرّب تلك الجغرافيا.

يتناول الرحّالة في الصفحات (79–86) وصف مدينة مرزق، حيث يقول: "هي قاعة فزان الكبيرة التي بها المتصرّف والعسكر"، ولها حاكم من قبيلة أولاد محمّد، ثم يتحدث عن عدد العساكر في مرزق ودخلها المالي، وعن التجار والأعيان، كما يُبين بأن أغلب سكان مرزق من الطوارق، ثم يختم بقوله بأن مرزق لا ينزل بها المطر، حيث أن نزول المطر يضرّ بالتمر الذي هو قوت المدينة.

قد يكون مفيدًا أن نشير إلى أن دولة أولاد محمّد حكمت فزان منذ (1550–1813) حيث أغفل الرحّالة الإشارة إلى تاريخها، ونعتقد بأن هذه الدولة لا تزال بحاجة إلى مزيد من التعريف وتسليط الضوء عليها، خاصةً في التاريخ الذي يُدرّس في المؤسّسات التعليمية أو في وسائل الإعلام.

بعد ذلك يقفز بنا الحشائشي إلى بنغازي والجبل الأخضر في الصفحات (87–92)، حيث وصلها بحرًا من مالطا عن طريق طرابلس، وعن التركيبة السكانية لتجار مدنية بنغازي يقول الرحّالة: " يوجد بها عدد من الجرابة، وبعض الصفاقسيين، وبعض من الطرابلسيين، وجانب كبير من اليهود؛ أما أهالي البلد فلا يتعاطون هذه الصناعة "؛ كما يستطرد فيقول: البلد – يقصد بنغازي – بلد بوادي وأعراب وغالبهم أهل الجبل الأخضر، اما القصّاب والخبّاز والزيّات غالبهم من أهل طرابلس ومصراتة، أما أهل البلد فليست لهم حرفة إلا صناعة الفلاحة ".

ISSN 2664-1682

وبخصوص الفلاحة في بنغازي فيقول " هم مختصون بها ولا يتقنونها؛ ولو أنهم معتنون بإتقانها لكانوا أثرى بلاد في أفريقية لخصوبة أراضيهم"، وعن أنواع اللحوم في بنغازي يقول الحشائشي " كفاك أن الكثير من لحوم مصر والشام تأتيهم من بلد بنغازي من بقر وضأن ومعز طعمه في غاية اللذة ".

نعتقد بأن ما تناوله الحشائشي يُبين بوضوح بأن مسألة الوحدة الوطنية حتى وأن توارت معانيها حاليًا فإن الحقائق التاريخية يصعب إخفاؤها، خاصةً عندما نعلم بأن جُلّ سكان مدينة بنغازي من المنطقة الغربية دون تحديد.

في الصفحات من (93-100)، يتحدث الرحّالة عن الجبل الأخضر، وعن أهم مدنه حيث يبدأ بمدينة شحات وعن آثارها والتماثيل المرمرية والرخامية، ثم ينتقل إلى مدينة المرج، وبخصوص سكان الجبل الأخضر فيقول " سكان هذا الجبل أعراب البادية لسانهم طُلق فصيح بالعربية، وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة، معتقدون في شيخهم محمد المهدي السنوسي اعتقادًا لا تزحزحه الجبال، ويخافون الله ورسوله وأصحاب العبادة" وفي هذا الفصل يعود بنا الرحّالة إلى الفلاحة في بنغازي مرة أخرى حيث يبرّر أسبابها فيقول " حرث الأرض عندهم ليس بتقنين، لا من جهة آلات الحرث، ولا من جهة الدواب التي تثير الحرث ولا من جهة العلم بالحراثة، وإصلاح الأرض من التغيير وغيره " .

لقد أحسن الرحّالة عندما ركّز على مسألة الحاجة إلى تقنين الفلاحة، واستغلال الأراضي الزراعية، ولعل أهم ما فعله الاحتلال الإيطالي عندما استوطن بتلك الأراضي أنه قام بإدخال التقنية الزراعية، من خلال دراسة نوعية التربة، وتحديد نوعية المزروعات، فكان الإنتاج الزراعي ما يكفي للتصدير إلى الخارج.

ISSN 2664-1682

ينتقل بنا الرحّالة الحشائشي بعد ذلك للحديث عن مصراتة في الصفحات (101–108)، حيث يرسم كلمتها بالسين بدل الصاد، والطاء بدل التاء، فتكون "مسراطة"، كما يصف الفلاحة في هذه المدينة على أنها " نمط أهل صفاقس بتونس، حيث يخدمون الأرض حتى يصيرونها كالحرير الناعم "، كما يُبين بأن أهلها على علم بالفلاحة وخدمتها، ويصف سكانها بأن "كلهم تجار وأصحاب جد واجتهاد "، كما يُوضّح بأن أغلب تجار مصراتة من اليهود، حيث يتمتعون بحرية تامة في كسبهم وارتزاقهم ودياناتهم، كما يُفرد صفحات للحديث عن الشيخ أحمد زروق.

وهنا نسارع إلى القول بأنه على القارئ أن يُدرك بأن الرحّالة لا يزال يفيض علينا بمعاني وعبر من خلال رحلته إلى ليبيا.

يقفز بنا الرحالة بعد ذلك إلى مدينة غات في الصفحات (109–118)، حيث يُبين بأن أهلها من الطوارق، ويُوضح من عادات التجار في غات أنهم لا يفتحون دكاكينهم بأنفسهم لأن ذلك يُعدّ عندهم من العيوب، حيث يوجد لكل تاجر رجل عتري وهو من العبيد الأرقاء.

كما أشار الرحالة بأن التجارة قبل 1873م بين غات وغدامس مع تونس كانت تحت إشراف الدولة التونسية، حيث يقول " ولا زالت الآثار التونسية فيهم خصوصًا في اللباس".

نعتقد بأن هذا الأمر ربما يدعو إلى طرح تساؤل وهو: هل اللباس يُعدّ من الآثار؟

وهذا قد يدعونا إلى طرح تساؤل آخر وهو: ألّا يُعدّ اللباس الذي شاهده الرحّالة عند السنوسيين وهي الشاشية التونسية من الآثار التونسية؟

ISSN 2664-1682

نجزم بأن مسالة ربط اللباس بالدولة التونسية يبدو غير حقيقي وغير منطقي خاصةً عندما نعلم بأن جُلّ الليبيين لا يزالون يعتمدون على بعض المنسوجات التونسية أو المصرية، فمثلاً لا تزال تعمل بعض مصانع النسيج المصرية – حاليًا–على صناعة الزي الوطني الليبي، فهل هذا يعني بأنها آثار ليبية أم مصرية؟ نعتقد بأن الأمر كان ولا يزال مرتبطاً بمسألة وجود أيدٍ مهرة في إنجاز المطلوب منها، وليس له علاقة بمسالة الآثار كما يزعم الرحّالة.

بعد ذلك ينتقل بنا الرحّالة الحشائشي لتسليط الضوء على العلاقات التجارية بين غدامس وتونس، حيث يتحدث عن الركب الغدامسي إلى تونس، فيقول بأن هذا الركب دامت مواصلته إلى تونس أوائل دولة المشير أحمد باشا باي الحسيني، بعد ذلك انقطع وصار يقصد طرابلس بسلعه وعبيده.

نعتقد بأن الإشارة لمثل هذه الوقائع ربما تمنح هذه الرحلة بعض الشبهات، فهناك إصرار من قبل الرحّالة على وجود ربط تاريخي بين تونس ومدينتي غات وغدامس، ولعل الإشارة إلى تحوّل ركب غدامس من تونس إلى طرابلس هي إحدى تلك الإشارات، عموما فأن فترة حكم دولة المشير أحمد باشا باي الحسيني التي أشار إليها الرحّالة كانت خلال الفترة من (1837–1855م)، وهذه الفترة هي بداية العهد العثماني الثاني في حكم ليبيا، شهدت بعض الاضطرابات المسلّحة في ليبيا مثل حركة سيف النصر، وحركة غومة المحمودي، بالتالي كما هو معروف فإن القوافل التجارية تبحث دائمًا عن الطرق الآمنة، ومن ثم ربما كان التركيز على تونس، بالرغم من ذلك فإن القوافل من طرابلس إلى غدامس أو العكس لم تنقطع، وهذا لا يعني بالضرورة بأن الركب الغدامسي كان مقتصرًا على طرابلس.

ISSN 2664-1682

بعد ذلك يعود الحشائشي للحديث عن غات مرة أخرى (119-125) حيث يسرد تاريخ الطوارق في الإسلام، وأهم قبائلها وكيفية ركوبهم الجمال، ولباسهم، وأوصاف منازلهم وبيوتهم، فيقول : " من عاداتهم ألا يتزوج الرجل منهم أكثر من امرأة "، ويعود مرة أخرى الرحّالة إلى علاقات الطوارق بتونس حيث يقول :" وما هو مركوز في عقولهم أن ليس يوجد بلد في العالم أعظم من مدينة تونس "، حيث يرون أن سلعها أحسن السلع "، ثم يشير الرحّالة بأنه من يريد الاستزادة عن الطوارق عليه الرجوع إلى مخطوطته التي تمّت ترجمتها إلى الفرنسية، ويعلّق هنا الأستاذ علي المصراتي بقوله " يُفهم من هذا أن الكتاب الذي طُبع بالفرنسية به عن الطوارق أكثر من هنا ".

في الحقيقة ما طرحه الحشائشي في هذا الفصل يطرح تساؤلًا مهمًا وهو: لماذا لم تتضمّن هذه المخطوطة ما تمّت ترجمته بالفرنسية من معلومات عن الطوارق؟

وهل من المنطقي أو الصحيح أن يتم حذف بشكلٍ مقصود أو غير مقصود بعض الفقرات عن المخطوطة العربية؟، وهذا يدفعنا إلى طرح تساؤل آخر وهو: هل هناك معلومات وبيانات أخرى ذكرها أو سردها الرحّالة في المخطوطة المترجمة إلى الفرنسية ولا توجد في المخطوطة العربية؟، وهذا ربما يُعيد طرح مسألة حصول الرحّالة على الدعم الفرنسي تقفز إلى الذهن مرة أخرى!.

عمومًا نعتقد بأن التساؤلات المطروحة – المشروعة- بحاجة إلى بحث وتقصّي، وبشكلٍ خاص من قبل البُحاث في المجال التاريخي.

في الصفحات (126-132) تحت عنوان غدامس، يعود الرحّالة للحديث عن غدامس والغدامسية، حيث يقول بأنهم منذ اتبعوا الطريقة السنوسية صار منهم من يحفظ

ISSN 2664-1682

القرآن، كما بيّن وجود مثل غدامسي يقول" غدامس تُولد، وتونس تربي"، ثم يتحدث عن الغدامسة التجار بتونس.

نعتقد بوجود حاجة إلى توضيح ماهية أو مضمون المثل المذكور، والذي أشار إليه الرحّالة دون قيامه بتحديد المقصود منه، فالمقصود هنا بجملة " تونس تربي" – حسبما نعتقد– هي جامعة الزيتونة التي كانت مقصد كل طلاب العلم ليس في غدامس وحسب، إنما في غرب ليبيا برمتها، بالتالي نجزم بأن هذا المثل لا يعني ما يرمي إليه الرحّالة من وجود علاقات تبعية خاصة بين تونس وغدامس، بل هي علاقات روحية دينية اتجاه ما تمثله جامعة الزيتونة في نفوس وعقول مدن ومناطق وقبائل غرب ليبيا.

وتحت عنوان " لبدة وغريان والخمس" في الصفحات (133–136) يتحدث الرحالة في هذا الفصل عن لبدة ثم ينتقل إلى للحديث عن جبل غريان، وبعد ذلك الخمس، ثم يقوم بالتعريف بتاجوراء، ثم يقفز بنا إلى برقة، ويتحدث عن التعريف بسكان برقة، ويتحدث أيضاً عن وجود برقة البيضاء وبرقة الحمراء، وهي مرتبطة بلون الأرض بحيث أن الأركاب إذا دخلوا أرضاً يتلونون بلون الأرض فترى ثيابهم بيض أن دخلوا البيضاء ويحمرّ أن دخلوا الحمراء.

في الحقيقة نعتقد بوجود تداخل بعض الشيء في هذا الفصل، وهناك قفزات واضحة في ترتيب المدن والمناطق حيث تبرز الحاجة إلى ترتيب المدن والمناطق، وهذا قد يعني أن الرحّالة قد نسي بعض المعلومات مع طول المدة.

في الصفحات (137–142) يتناول الرحّالة شخصية سيف النصر حيث يقول إنه " سيف النصر عبد الجليل ابن سيف النصر، كان جده حاكمًا على عموم فزان، حيث ثار والده على الحكم العثماني فتم قتله من قبل الحكومة العثمانية "، وينتقل بنا الرحّالة بعد

ISSN 2664-1682

ذلك إلى مدينة ودّان، حيث يقوم بوصفها والتعريف بأهلها فيقول "غالب أهلها من الأشراف إن لم نقل جميعهم والمعروفين بأشراف ودّان يكرمون الأضياف، ويحسنون للغرباء".

نعتقد بأن فهم الكثير من المسائل المرتبطة بمسألة معاملة الغرباء في ليبيا بشكل عام لا يمكن فهمها بمعزل عن حسابات الحكومة المركزية سواء في طرابلس أثناء الحكم القرمانلي أو في تركيا أثناء الحكم العثماني الأول أو الثاني آنذاك، والتي تفرضها مصالح تلك القيادات، كما نعتقد بأن البعد الديني ربما يكون له دورًا في توجيه السلوكيات والممارسات اتجاه أولئك الغرباء، كما تقوم القيم البدوية أيضًا بدورًا مهمًا في تحديد تلك السلوكيات والممارسات اتجاه الغرباء،فمثلًا :عندما يكون الغرباء في حالة ضعف أو يحتاجون إلى مساعدة فأن قيم نصرة المحتاج، والمؤاخاة، والحماية والرعاية تبرز على السطح المجتمع، كما أن هذه القيم قد تخفت وتبرز قيم أخرى في حال تغيرت ممارسات وسلوكيات الغرباء.

أما فيما يتعلق بشخصية سيف النصر فنعتقد بأننا بحاجة إلى إعادة التعريف بكل الشخصيات التاريخية بعيدًا عن التأثيرات السياسية أو القبيلة أو المناطقية، وهي دعوة للمتخصّصين من أجل البحث والكشف لمعرفة التفاصيل والجزئيات.

ينتقل بنا الحشائشي في الصفحات (143) إلى الطرق الصوفية، حيث يعدّد تلك الطرق فيقول: " توجد عدة طرق صوفية منها الطريقة السنوسية وتسمى الطريقة المحمدية، والسلامية، وهي العروسية، والمدنية، والزروقية، والتيجانية، والرحمانية، والقادرية، والشاذلية، والعيساوية، والطيبية ".

وساهمت هذه الطرق في المحافظة على الهوية العربية الإسلامية للمجتمع الليبي من خلال تحيفظ القرآن الكريم وتنقل مشائخ هذه الطرق في ربوع ليبيا، وعمومًا نعتقد بأن الطرق الصوفية لا تزال بحاجة إلى بحث وكشف بشكل أعمق، وهي دعوة لكل المتخصّصين

ISSN 2664-1682

في التاريخ، والدراسات الإسلامية، وعلم الاجتماع، من أجل وقفة جادة للتدبّر حول أهمية هذا المشروع.

في الصفحات (144-182) يتحدث الرحّالة الحشائشي عن نسب السنوسي الكبير، حيث يقوم بالتعريف بالشيخ الأكبر المؤسّس للطريقة وهو محمّد بن علي السنوسي، حيث يُبين بأن أصل الشيخ من أرض الجزائر من مدينة مستغانم من قبيلة الخطاطبة، حيث يتحدث عن رحلته إلى الحجاز ثم رجوعه واستقراره في الجبل الأخضر ثم ارتحاله إلى جغبوب وبناء زاويته التي يراها الرحّالة بأنها أم الزوايا.

ينتقل الرحّالة بعد ذلك في الحديث للتعريف بالجغبوب، وعن مكتبتها التي قال بأنها تحتوي على حوالي ثمانية آلاف مجلّد من تفاسير، وأحاديث، وأصول وتوحيد وفقه، إضافةً إلى العلوم الأخرى، ثم يتطرق إلى علماء الجغبوب، منهم ابني مؤسّس الحركة السنوسية وهما: محمّد المهدي، ومحمّد الشريف، كما يتحدث عن مواقف وصفات محمّد المهدي الذي تولى قيادة الحركة بعد وفاة والده، ويفرد فصلاً عن ارتحال الشيخ محمّد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة العام 1894م.

ثم يعرّج الرحّالة للتعريف بالإخوان السنوسية حيث يقول تطلق هذه الكلمة على كل إنسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها – أي الأذكار– وتسمى هذه الطريقة بالمحمدية.

ثم يتحدث عن استعمال الشاهي عند السنوسيين حيث يقول كل واحد منهم يشرب ثلاثة أكواب من الشاهي بعد الغذاء ومثلها أو أكثر بعد العشاء، كما يتناول الرحّالة لباس السنوسيين.

ISSN 2664-1682

نودّ هنا طرح مسألة مهمة وهي أن الحركة السنوسية كانت بحاجة إلى مراجعة من داخلها، فالإيمان بالأفكار باقٍ، ولكن الممارسات الفعلية هي التي تترك مجالاً كبيرًا للقبول أو الرفض المجتمعي، عمومًا نعتقد بأن الحركة السنوسية لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث والكشف.

تحت عنوان مشايخ وأساتذة في الصفحات (183-191) يسرد الرحّالة الحديث عن مشايخ الزوايا السنوسية، ويُبين بأن مشايخ الزوايا لهم عند الشيخ والإخوان مكانة عظيمة إذ هم نوابه في بثّ الطريقة والقائمين مقامه في نشرها وغالبهم علماء أفاضل، حيث أوضح وجود حوالي (300) زاوية، كما أن جميع الزوايا ذات أحباس وعقارات كثيرة، حيث تطعم الطعام في سبيل الله، وتأوي الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ثم يتحدث عن زوّار السنوسية، وكيفية الزيارة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الطريقة السلامية ومؤسّسها الشيخ عبدالسلام الأسمر وهي منتشرة في زليطن والخمس وطرابلس ومصراتة، ثم يتناول الطريقة المدنية ومؤسّسها شعيب المدني .

في الحقيقة احتلت الحركة السنوسية مكانة دينية عميقة عند الليبيين، خاصةً في المنطقتين الشرقية والجنوبية، ويرجع ذلك إلى المبادئ والممارسات الأخلاقية التي دعت إليها تلك الحركة، ومارستها بشكل جليّ قياداتها الدينية، وذلك قبل الدعوة بالالتزام بها من عامة المجتمع، بالتالي أصبح هناك قبول مجتمعي من الأغلبية بها، هذا القبول حمل في طياته نزول تلك الأغلبية لأوامر ونواهي تلك الحركة، ومع مرور الزمن أصبح هناك نوع من السلطة تمارسها تلك الحركة على الأغلبية.

ISSN 2664-1682

فساهمت تلك السلطة الدينية من خلال القبول الاختياري من الأغلبية بها مثلاً في إعلان الجهاد على إيطاليا، كما ساهمت في القبول بالوجود الإيطالي بالمنطقة الشرقية من 1914–1924م، وساهمت أيضًا في تشكيل الجيش السنوسي في الحرب العالمية الثانية.

وهنا قد يطرح القاري سؤال مهم وهو: هل تلك السلطة الدينية – السنوسية – لا تزال موجودة في المجتمع الليبي خاصةً في المنطقة الشرقية؟

فنقول بأن أيّ سلطة لديها شروط للقبول المجتمعي، ولديها أيضًا شروط للسقوط، وهذا يعني عدم القبول المجتمعي بها، وعندما نبحث عن شروط القبول للحركة السنوسية خلال حكم الملك إدريس – كممثل للحركة السنوسية – والممتدة من 1951–1969م، نجد أن بعض تلك الشروط قد سقطت، كما أن بعضها قد اختفى أو انتهى، وفقدت جزءًا من بريقها الديني، وهذا يعود ربما إلى افتقاد ممثل الحركة – الملك – إلى وجود مشروع وطني للدولة الليبية، ولعل القبول المجتمعي للتغيير الحاصل في 1 سبتمبر 1969م، سواء اتفقنا أو اختلفنا معه يُبين بشكل جليّ بأن شروط سقوط سلطة الحركة السنوسية كانت موجودة فعلاً، وهذا لا يعني بأيّ حال تبرير الحاصل في سبتمبر 1969م .

في الصفحات من (212–219) يتحدث الرحّالة عن الاحتلال الإيطالي لليبيا، وذلك تحت عنوان الحرب بين إيطاليا وتركيا.

نعتقد بأن الحرب لم تكن بين إيطاليا وتركيا، إنما كانت بين الشعب الليبي وإيطاليا، ولعل هذه الحرب وحّدت جغرافية ليبيا شرقاً وغرباً وجنوباً في وقتٍ كان البعض يعتقد أنها صعبة التحقيق، فهذه الحرب أوضحت للعالم بأن الشعب الليبي قد يدخل في حروب أهلية، وقد يعاتبون بعضهم البعض أحيانًا، وربما يغضبون لكنهم تحت كل الظروف لا يسمحون –

ISSN 2664-1682

ولا يقدرون على السماح – بقطيعة الجغرافيا والتاريخ بينهم فذلك أكثر مما يحتملون، وأكثر مما تحتمل الظروف نفسها.

4. الخاتمة

يمكن القول بأن رحلة الحشائشي العام 1895م تعد وثيقة تاريخية مهمة، حيث دَوَن الرحالة الوقائع والمشاهدات، وقيد الملاحظات التي تؤكد وجود تصالح للتضاريس الليبية؛ بالرغم من التباين والمسافات الشاسعة فيما بينها، كما كشفت من ناحية أخرى عن صلات من الانسجام والتناغم بين القبائل والمناطق الليبية سواء أكانت غربًا، أم شرقًا، أم شمالًا، أم جنوبًا، بالرغم من حالات الانقسام السياسي والجغرافي الموجودة آنذاك، حيث لم تتعرض العلاقات بين القبائل والمناطق الليبية لأي تغيير يُذكر.

ولعل الحرب الليبية – الإيطالية كانت حركة تاريخ عنيفة ساهمت في توحيد ليبيا، ولم تهتم بالمعوقات والتحدّيات التي اعترضت سبيل تلك الوحدة خاصة أهواء الزعماء والقيادات المحلية، فدواعي التاريخ فرضت إعادة ثوابت الجغرافيا إلى سيرتها الأولى.

كما نختم بالإشارة إلى أن مثل هذه القراءات التحليلية السوسيولوجية الوثائق التاريخية – المهمة – ستكون قادرة على الكشف والفهم والتحليل السليم لأي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية، وذلك بمحاولة فهم ما يمكن أن يكون.

كما تُسهم مثل هذه القراءات في التحريض والتحفيز الوعي الوطني نحو تشكيل الهوية الوطنية –الليبية– لتكون الرابطة ما بين المناطق والقبائل الليبية كافة، ليصعد ما من أعماقها ما كان مدفونًا من تجليات وطنية.

ISSN 2664-1682